الفصل الثالث والتسعون

المراعي

وفي جزيرة العرب مراعي ، منها الخاص ، ومنها العام . والمراعي الخاصة ما تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى ، مثل الاحماء ، حيث لا يسمح لأحد غير مأذون بالرعي في (الحمى) . أما المراعي العامة، فهي التي لا تدخل في ملك أحـــد ، وإنما يرعى فيها كل أبناء الحي ، وجميع أبناء القبيلة ، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة ما دامت عزيزة فيها مالكة لرقبتها ، يرعى فيها كل أبنائهـــا ، فإذا ذلت واستخذت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية ، فشاركتها في أرضهـــا ، وربما أجلتها عنها . وإذا ارتحلت القبيلة عن أرضها ، وتركتها ، ونزل بها نازل جديد ، صارت الأرض ملكاً له ، ما لم يدفع عنها بالقوة ، أو يتركها هو رضاءً . فإذا ارتحل عنها ، ونزل في مكان جديـــد ، سقط حقه فيها ، وانتقلت رقبة الأرض الى النازل الجديد . وهكذا تكون المراعي عامة مشاعة بين جميع أبناء القبيلة ، ما خلا الحمى ، ينتفع بها جميع أبنائها ، بما في ذلك سادة القبيلة وأصحاب الاحماء ، الذين ترعى إبلهم في احمائهم ، كما ترعى مع إبل الناس في مراعي القبيلة ، ولا يجوز لأحد من القبيلة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعي القبيلة ، لأنها للجميع . وقد أخذ بهذا الحـــكم في الإسلام بالنسبة للمراعي الموات ، بقول الرسول : « الناس شركاء في ثلاث: الماء ، والنار ، والكلأ »[1] .

---

١ الاحكام السلطانية (٢٠٨) .

و (الرعي) الكلأ ، وهو ما ترعاه الراعية . والراعي ، هو الذي يتولى أمر الماشية التي ترعى ، ويقال للذي يجيد رعية الإبل (ترْعاية) و (ترْعى) ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى) الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم لأنها الإبلُ التي يعتمل عليها [1].

ويقال للمرعى في المسند (مرعم) ، (مرعيم) ، (مرعى) [2] . والمرعى موضع الرعي . والرعي الكلأ . والمرعى والرعي ما ترعاه الراعية . ورُعيان ، ورُعاء ، رعاة الغنم على الأكثر . ويقال (ترعى) و (ترعاية) و (تراعية) للرجل يجيد رعية الإبل ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى) [3] ، الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم ، لأنها الإبل التي يعتمل عليها [4] . ويقال للمرعى (الأب) ، وهو الكلأ جميعه الذي تعتلفه الماشية ، رطبه ويابسه [5] .

ويعبر عن الإبل إذا رعت بـ (سامت المال) ، و (سامت الإبل) ، يقال سامت الراعية والماشية والغنم تسوم سوماً ، رعت حيث شاءت ، فهي سائمة . والسوام والسائمة الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلي وسومه يرعى حيث شاء ، والسائم الذاهب على وجهه حيث يشاء . وذكر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وورد في الحديث : سائمة الغنم [6] . و (السرح) المال السائم . وذكر بعض علماء اللغة ان المال لا يسمى سرحاً إلا ما يفدى به ويراح [7] .

وتؤدي لفظة (مرتع) معنى (مرعى) . ورتع بمعنى أكل وشرب للبهائم. ولا يكون الرتع إلا في خصب وسعة [8] . وتؤدي لفظة (النجعة) ، معنى طلب الكلأ في موضعه . و « والنجعة عند العرب المذهب في طلب الكلأ في موضعه ،

---

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexl., I, S. 57, Halevy 147.
٣ كسكارى ويضم .
٤ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٥ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أبّ) .
٦ تاج العروس (٨/٣٥٠) ، (سوم) .
٧ تاج العروس (٢/١٦٠) ، (سرح) .
٨ تاج العروس (٥/٣٤٧) ، (رتع) .

والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الخرف وفناء ماء السماء في الغدران، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتشبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب ، إذا أعشبت البلاد ، ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى أن يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران فيرجعون الى محاضرهم على أعداد المياه»[1].

ويقال أرض معرضة ، للأرض التي يستعرضها المال ويعترضها ، أي هي أرض فيها نبات يرعاه المال إذا مرّ فيها[2] .

وإذا أقامت الإبل في المرعى ، قيل : (عدنت الإبل) ، وخص بعضهم به الإقامة في (الحمض) ، وقيل يكون في كل شيء[3] .

وقد تكون المراعي عند مشارف أهل الحضر ، لا تبعد عن القرى وعن مستوطناتهم كثيراً ، وذلك بالنسبة لرعي الغنم . فيؤدي أهل البيوت أغنامهم الى الراعي ، ليأخذها الى الخارج فيرعى بها وتتجمع عند الراعي أغنام لمختلف الناس، في مقابل أجر يدفع له . وقد كان الرسول راعي غنم ، يرعى غنم قريش، وغنم أهله بـ (أجياد) بالقراريط[4] .

وكان بين أصحاب الغنم ، وبين أصحاب الإبل تنازع ، وقد كان يستطيل أصحاب الإبل على أصحاب الغنم[5] .

و (المنقل) النجعة يتنقلون من المرعى إذا احتفوه إلى مرعى آخر ، وذلك إذا رعوا فلم يتركوا فيه شيئاً . والناقلة ضد القاطنين ، والجمع النواقل . والنقل الطريق المختصر[6] . والنُجعة طلب الكلأ في موضعه . والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الخرف وفناء ماء السماء في الغدران ، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً ، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتتبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب إذا أعشبت البلاد

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٥ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٦ تاج العروس (٨/١٤٤) .

ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع إلى ان يهيج العشب من عام قابل ، وتنش الغدران ، فيرجعون إلى محاضرهم على أعداد المياه[1] .

وإذا أمطرت السماء مطراً كافياً ، كان ذلك خيراً للعرب وفرحة عظيمة . إذ تغيث الأرض وتكسوها حلة سندسية جميلة ، وتزول الغبرة عن وجهها ، وتظهر الأرض فرحة مستبشرة بعد عبوس وكآبة . فتهيج الأرض وتنبت نبتاً أخضر ، يكون بهجة للناظرين وطعاماً شهياً للإبل ولبقية حيواناتهم،تقبل عليه إقبالاً شديداً، فتشبع وتصح أجسامها ، ويكثر نسلها . ويقال للخضرة التي تكسو وجه الأرض (الكلأ) ، وهو العشب ، رطبه ويابسه . وأرض كليئة ومكلأة ، كثيرة الكلأ[2]. وذكر ان العشب الكلأ الرطب ، والرطب من البقول البرية ، ينبت في الربيع ، وهو سرعان الكلأ في الربيع يهيج ولا يبقى . ويدخل في العشب ، أحرار البقول وذكورها ، فأحرارها ما رق منها وكان ناعماً . وذكورها ما صلب وغلظ منها. وذكر بعضهم ان العشب كل ما أباده الشتاء وكان نباته ثانية من أرومة أو بذر[3].

وفي ذلك يقول الأعشى :

ألم تر أن الأرض أصبح بطنها نخيلاً وزرعـاً نابتاً وفصافصا

والفصافص الرطب من علف الحيوان ، ويسمى (القت) . وقيل هو رطب القت . وفي الحديث : ليس في الفصافص صدقة[4] .

و (البقل) ما نبت في بزره لا في أرومة ثابتة . وذكر أنه كل ما اخضرت به الأرض . والفرق بين البقل ودق الشجر ، أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق، والشجر تبقى له سوق وإن دقت . وقال بعض علماء اللغة : البقل مـا لا يثبت أصله وفرعه في الشتاء . والبُقلة ، بقل الربيع خاصة . وبقلت الأرض إذا أنبتت[5]. وذكر أن من أسماء بقل الربيع : الجشر[6] .

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (١/١١١) ، (كلأ) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عشب) .
٤ تاج العروس (٤/٤١٦) ، (فصص) .
٥ تاج العروس (٧/٢٣١) ، (بقل) .
٦ تاج العروس (٣/١٠١) ، (جشر) .

وترد لفظة (لسسن) ، (لسس) ، الواردة في نصوص المسنـــد في معنى (لساس)[1] في عربيتنا[2] . ويراد بها أول البقل ، وقيل هو من البقل ما استمكنت منه الراعية وهو صغار . وقيل : البقل ما دام صغيراً لا تستمكن منه الراعية ، وذلك لأنها تلسه بألسنتها لساً[3] .

والحشيش الكلأ اليابس ، ولا يقال وهو رطب حشيش . والطاقة منه حشيشة . والعشب يعمّ الرطب واليابس . وقال بعض علماء اللغة : الحشيش أخضر الكلأ ويابسه . وقال بعض آخر العرب إذا اطلقوا اسم الحشيش عنوا به الخلي خاصة ، وهو أجود علف يصلح الخيل عليه . وهو من خير مراعي النعم . وقـال بعض آخر : البقل أجمع رطباً ويابساً حشيش وعلف وخلي[4] . والخـلي : الرطب من النبات . وقال بعض علماء اللغة : هو النبات الرقيق ما دام رطباً[5] .

وترد في المسند لفظة (جمست) (جمسة) ، بمعنى الحشائش عند جفافهـا والنبت إذا مـا ذهبت غضاضته[6] . وهي بهذا المعنى في عربية القرآن الكريم . فالجامس من النبات ما ذهبت غضوضته ورطوبته فولى وجسا[7] .

وتنبت الأمطار ما دقّ من الشجر ، وبعض أنواع الشجر ، وقد تثمر ثمراً يستفيد منه الانسان . كما يستفيد من عوده ومن حطبه وخشبه . أما ورقه فيكون طعاماً شهياً للإبل . ونجد في كتب اللغة أسماء عدد كبير من هذه النباتات . وقد استعان الأعـراب بالنبات وبالشجر في مداواة أنفسهم ، علمتهم تجاربهم الطويلة القديمة ، ما ينفع منها في معالجة ما يصابون به من مرض ، فصار لهم طب خاص بهم ، يقوم على الفراسة وعلى الملاحظة وعلى التجارب في استخدام النبات في مداواة الانسان وفي معالجة ماله ؛ ولا زال هذا الطب معمولاً به في البوادي ، عند الأعراب .

---

١ كغراب .
٢ القاموس (٢/٢٤٩) .
٣ تاج العروس (٤/٢٤١) ، (لـس) ، REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.
٤ تاج العروس (٤/٢٩٨) ، (حشش) .
٥ تاج العروس (١٠/١٢٠) ، (خلى) .
٦ REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.
٧ القاموس (٢/٢٠٥) ، تاج العروس (٤/١٢٢ وما بعدها) ، (جمس) .

ويعد الأراك من أطايب أكل الإبل ، إذا أصابت منه شيئاً ، ظهر طعمه في اللبن ، وهم يستحسنون هذا اللبن . وقد كان الرعاة إذا مروا به اجتنوا ثمرته ، و (الكباث) ، هو أحسن ثمره ، ولونه أسود ، وهو أطيب ثمر الأراك . وقد اجتناه الرسول يوم كان راعياً[1] . وهو النضيـــج من ثمر الأراك . وما لم ينضج فهو (برير) . وقيـل : الكباث هو مـا لم ينضج منه ، وقيـــل حمله إذا كان متفرقاً[2] .

وتكتسي الأرض بعد ظهور الكلأ ثوباً سندسياً جميلاً ، فتظهر خضراء، لكثرة ما عليها من (الخضر) ، وهو الزرع والنبات الذي نبت عليها . و (الخضر) ، المكان الكثير الخضرة . ويراد بالخضرة (البقلة الخضراء) ، وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً،وهي تملأ فم البعير . و (الخضر) ضرب من الجنبة ، والجنبة من الكلأ ما له أصل غامض في الأرض، مثل النصى والصليان . وليس الخضر من أحـرار البقول التي تهيج في الصيف . وجيدها الذي ينبته الربيع بتوالي أمطاره فتحسن وتنعـــم ، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ويبسها حيث لا تجد سواها،وتسميها العرب الجنبة، فلا ترى الماشية تكثر من أكلها ولا تستمرئها[3] .

والجنبة ، عامة الشجر التي تتربل في زمان الصيف . واسم لنبـــوت كثيرة ، وهي كلها عروق . سميت جنبة ، لأنها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التي لا أرومة لها في الأرض . فمن الجنبة : النصي والصليان والحماط والمكر والحذر والدهماء . صغرت عن الشجر ونبلت عن البقول[4] . والنصي : نبت ما دام رطباً، فإذا ابيض ، فهو الطريفة ، فإذا ضخم ويبس ، فهو الحلي . وهـو من أفضل المرعى[5] . وذكر أن (الطريفة) من النصي ، إذا ابيض ويبس ، أو هو منـه اذا اعتم وتم وكذلك من الصليان . وذكر أيضاً أن الطريفة من النبـات ، أول الشيء ، يستطرفه المال،فيرعاه كائناً ما كان . وسميت طريفة ، لأن المال يطرفه

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٢ تاج العروس (١/٦٤٠) ، (كبث) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٩) ، (خضر) .
٤ تاج العروس (١/١٨٩) ، (جنب) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (أنصى) .

إذا لم يجد بقلاً . وقيل لكرمها وطرافتها واستطراف المال إياه . وقيل: الطريفة خير الكلأ ، إلا ما كان من العشب . ومن الطريفة النصيّ والصليان والهلتى والشحم والثغام[1] .

و (الحلي) ما ابيض من يبيس النصي والسبط ، وقيل : هو كل نبت يشبه نبات الزرع، أو اسم نبت بعينه. وقيل هو من خير مراتع أهل البادية للنعم والخيل[2].

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا أن جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبال ، وقد يستوقد بحطبه ، ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، يبنون عليه البيوت والخيام . وقيل : هو في مثل نبات التين ، غير أنه أصغر ورقاً ، وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر ، وهو شديد الحلاوة يحرق الفم إذا كان رطباً ، فإذا جف ذهب ذلك عنه . وهو يدخر وله إذا جفّ متانة وعلوكة . وهو أحب شجر الى الحيات ، أي انها تألفه كثيراً . يقال : شيطان حماط[3] .

والصليان ، نبت من الطريفة ، ينبت صعداً وأضخمه أعجازه وأصوله على قدر نبت الحليّ ، ومنابته السهول والرياض . وقيل الصليان من الجنبة لغلظه وبقائه[4] .

والمكرة نبتة غبراء مليحاء تنبت قصداً ، كأن فيها حمضاً حين تمضغ ، تنبت في السهل والرمل ، لها ورق وليس لها زهر . وقد تقع المكور على ضروب من الششجر كالرغل[5] . و (الدهماء) ، عشبة عريضة ذات ورق وقضب ، كأنها القرنوة ، ولها نورة حمراء يدبغ بها ، ومنبتها قفاف الرمل[6] .

الحمض والخلة :

ويقسم بعض العلماء المرعى كله إلى حمض وخلة . فالحمض ما فيه ملوحة ،

---

١ تاج العروس (٦/١٧٧ وما بعدها) ، (طرف) .
٢ تاج العروس (١٠/٩٨) ، (حلى) .
٣ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حمط) .
٤ تاج العروس (٧/٤٠٦) ، (صلل) .
٥ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .
٦ تاج العروس (٨/٢٩٩) ، (دهم) .

والخلة ما سواه . وكل أرض لم يكن بها حمض ، فهي خلّة ، وإن لم يكن بها من النبات شيء . وخلل الأرض التي لا حمض بها ، وربما كانت بها عضاه ، وربما لم تكن . ولو أتيت أرضاً ليس بها شيء من الشجر وهي جرز من الأرض، قلت انها خلة [1] .

والحمض ما ملح وأمر من النبات ، كالرمث والأثل والطرفاء ونحوها . وذكر أن الحمض من النبات كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له . ومن الحمض النجيل ، والخذراف ، والاخريط ، والقضة ، والقلام ، والهرم ، والحرض ، والدغـل ، وما أشبهها . وذكر أن الحمض كل نبات لا يهيج في الربيع ويبقى على القيظ وفيه ملوحة ، إذا أكلته الإبل شربت عليه،واذا لم تجده رقت وضعفت . وهي كفاكهة الإبل ، والخلة ما حلا ، وهي كخبزها ، تقول العرب : الخلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ويقال لحمها [2] .

والرمث ، مرعى للإبل ، وهو من الحمض ، وشجر يشبه الغضى،لا يطول ولكنه ينبسط ورقه ، وهو شبيه بالأشنان ، وله هدب طوال دقاق ، وهو مع ذلك كله كلأ تعيش فيه الابل والغنم وإن لم يكن معها غيره ، وربما خرج فيه عسل أبيض كأنه الجمان ، وهو شديد الحلاوة وله حطب وخشب ووقوده حسار ويتنفع بدخانه من الزكام . ويرتفع دون القامة فيحتطب [3] .

والطرفاء جماعة الطرفة ، شجر . قيل انها أربعة أصناف من الأثـل ، وقيل الطرفاء شجر من العضاه ، هدبه مثل هدب الأثـل ، وليس له خشب . وإنما يخرج عصيّاً سمحة في السماء ، وقد تتحمض به الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره . وقيل انه من الحمض [4] .

والأثل : شجر ، عدّه بعضهم نوع من الطرفاء ، وقال بعض آخر : الأثلة سمرة أو عضاهة طويلة قويمة يعمل منها الأقداح [5] . والنجيـل ، ضرب من دق الحمض ، وقيل هو خير الحمض كله وألينه على السائمة . وذكر انه إذا أخرج

---

١ تاج العروس (٣٠٧/٧) ، (خلل) .
٢ تاج العروس (٢٢/٥) ، (حمض) .
٣ تاج العروس (٦٢٥/١) ، (رمث) .
٤ تاج العروس (١٧٧/٦) ، (طرف) .
٥ تاج العروس (٢٠٢/٧) ، (أثل) .

عن الحمض أربع شجرات ، فسائره نجيل . هي الرمث والغضى والسلج . ومن النجيل : الخذراف ، والرغل ، والغولان ، والهرم ، والفذا، والقلام والطمحاء[1] . والخذراف ، نبات ربعي إذا أحس بالصيف يبس ، أو هو ضرب من الحمض له وريقة صغيرة يرتفع قدر الذراع[2] . والرُغل ، نبت ، أو حمضة تنفرش وعيدانها صلاب وورقها نحو من ورق الجماجم إلا انها بيضاء ومنابتها السهول ، والإبل تحمض به[3] .

والغولان ، حمض كالأشنان ، وقيل شبيه بالعنظوان ، إلا انه أدق منه . وهو مرعى[4] . و (الهَرم) ، نبت ضعيف ترعاه الإبل ، وقيل ضرب من الحمض فيه ملوحة . وقيل هو يبيس الشبرق ، وهو أذله وأشده انبساطاً على الأرض واستبطاحاً . وقيل شجر ، وان الهرمة البقلة الحمقاء[5] . و (الغذام) ، نبت من الحمض[6] . و (القلام) من الحمض: هو كالأشنان إلا انه أعظم[7] . و (القِضاض)[8] شجر من الحمض ، وقيل هو دقيق ضعيف أصفر اللون[9] .

والأراك من الحمض ، وقوم مؤركون نازلون بالأراك يرعونها ، ويقال أطيب الألبان ألبان الأوارك . وفي الحديث أتى بلبن الأوارك وهو بعرفة ، فشرب منه[10] .

و (الحرض) ، من النجيل . وذكر أنه الأشنان ، تغسل به الأيدي على أثر الطعام . وشجرته ضخمة ، وربما استظل بها ، ولها حطب ، وهو الذي يغسل به الناس الثياب . وأنقى وأبيض حرض هو حرض ينبت باليمامة ، بواد منها يقال له جوّ الخضارم[11] . و (الحيهل) ، شجرة قصيرة من دق الحمض

---

١ تاج العروس (١٢٨/٨) ، (نجل) .
٢ تاج العروس (٨٠/٦) ، (خذرف) .
٣ تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغل) .
٤ تاج العروس (٥٢/٨) ، (غال) .
٥ تاج العروس (١٠٢/٩) ، (هرم) .
٦ تاج العروس (٣/٩) ، (غذم) .
٧ تاج العروس (٣١/٩) ، (قلم) .
٨ وورد بالصاد .
٩ تاج العروس (٧٩/٥) .
١٠ تاج العروس (١٠٠/٧) ، (أرك) .
١١ تاج العروس (١٨/٥ وما بعدها) ، (حرض) .

لا ورق لها ، وقيل إنه (الهرم) ، وهو إذا أصابه المطر نبت سريعاً ، وإذا أكلته الإبل ، فلم تبعر ولم تسلح مسرعة ماتت ، وبذلك فسروا تسمية (الهرم) هرماً[1] .

وقد يضطر أصحاب الماشية الى اطعامها ما ينبت في الأرض السبخة ، أي ذات الملح . يقال (ملح الماشية) ، بمعنى أطعمها سبخة الملح[2] . و (السبخة) ، أرض ذات نز وملح ، وهي لا تكاد تنبت إلا بعض الشجر والنبات[3] . وتوجد السباخ في مواضع من جزيرة العرب ، في الأماكن الوطئة ، حيث تنز الأرض ، ويعلوها الملح ، وتكون رخوة .

ولفظة (رعى) من الألفاظ التي كثر ورودها في الكتابات الصفوية ، وهي كتابات أصحابها رعاة ، كانوا يتنقلون مع ماشيتهم من مكان الى آخر في طلب المرعى،فكانوا يكتبون خواطرهم على الحجارة والصخور ، تخليداً لنزولهم هاتيك المواضع . وهم من عشائر مختلفة امتهنت الرعي ، فكانت تتنقل من مكان الى مكان . تتوغل في الربيع في البوادي ، فإذا انتهى الموسم ويبس الكلأ ، عادت الى مواضع قريبة من الحضر ، حيث يتوفر فيها الماء ، فترعى ماشيتها بكلأ هذه الأرضين ، وتبيع الى أهل المدر ، ما يكون عندها من وبر وأصواف ومنتوج ألبان .

وتثبت النصوص الصفوية أن أصحابها كانوا جماعة من الرعاة ، يتنقلون من مكان الى مكان ، بدليل الإشارة الى المرعى (همرعى) (هـ مرعى) ، (ها مرعى) ، أي (المرعى) والى الماء والى البقر والإبل والشياه (شهى) (شاهي) ، والأودية (هنخل) (هـ — نخل) (ها نخل) وغير ذلك من الألفاظ التي ترد على ألسنة الرعاة . فكان هؤلاء الصفويون يتنقلون مع الكلأ والماء لرعي ماشيتهم[4] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (الحيهل) .
٢ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .
٣ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سبخ) .
٤ ديسو ، العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٩٤ وما بعدها) .

أصناف الرعاة :

والرعاة على صنفين : رعاة الإبل ، وهم الممعنون في البوادي ، والذين يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون إلى بيوتهم ، ولا يرعون غيرها ، وهم : (الجشر) أو هم الذين يرعون الإبل ، ويقيمون معها في المرعى ، ولا يرعون معها غيرها من بقية الحيوانات[1] . وهم جلّ الأعراب ، بل كلهم ، لأن حياة الأعرابي هي حياة رعي إبل ، يرعاها عند بيته أو على مبعدة منه . بات مع الإبل بعيداً عن بيته أو أهله اياماً أو موسم الربيع ، أو أقام عند خيمته مع إبله ، فهو راعي إبل في الحالتين .

وراعي الإبل ، هو الأعرابي الأصيل ، ابن البادية جوّاب بيداء ، لا يأكل البقل والخضر ، هو كما قال الراجز :

جوّاب بيداء بها غروف لا يأكل البقل ولا يريف
ولا يرى في بيته القليف[2]

ويقال للأعرابي الذي ينشأ في البدو والفلوات لم يزايلها : المقحم[3] .

ويكون هؤلاء الرعاة الأعراب من أبعد الرعاة عن (المصانع) ، أي القرى والحضر ، ومن أهلها ، لا يذهبون اليها ولا يتصلون بها[4] . فهم يعيشون في عالم خاص بهم بعيد عن القيود والتكاليف ، والتنويع في المأكل والمشرب .

ورعاة يرعون إبلاً ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم . وهم لعدم استطاعة البقر والغنم من التوغل في البادية والتعمق في طياتها ، لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ، لعدم استطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً . ولهذا فهم على اتصال بالحضر وبالحضارة ، وهم مرحلة وسطى بين الحضارة وبين

---

١ تاج العروس (٣/١٠٠ وما بعدها) ، (جشر) ، قال الاخطل :
تسأله الصبر من غسان اذ حضروا والحزن كيف قراه الغلمة الجشر
« وانما قالوا له ذلك ، لانه كان يقول لهم : أنتم جشر ، أي رعاة ابل » ، تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) .
٢ تاج العروس (٦/١٢٣) ، (تريف) ، (٦/٢٢٧) ، (قلف) .
٣ تاج العروس (٩/١٧) ، (قحم) .
٤ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .

الأعرابية ، وهم الجرثومة التي نبتت منها المجتمعات العربية الحضريـة في العراق وفي بلاد الشأم وفي جزيرة العرب ، وهم من أهل الخيام السود المنسوجة من شعر الماعز ، أو من صوف الأغنام . وقد أشير اليهم في التوراة ، وقد كانوا يسكنون شرق العبرانيين وفي أرض فلسطين .

وكانوا ينتجعون أيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفة ، فإذا افترقوا ورجعوا الى أوطانهم ساءهم ذلك ، وقد عرف هؤلاء بـ (الخلطاء) . كما كانوا يتشاركون في الرعي ، وذلك أن يستأجروا راعيـاً أو رعاة ، ويقدم كل واحد من الشركاء ما يريد تقديمه من الإبل أو الشياه ، ويحتمل كل واحد من المتشاركين أجر الرعي ، حسب عدد إبله أو شياهه[1] .

ولا يشترط في الراعي ، أن يكون أجيراً لغيره يرعى إبل وماشية غيره ، فقد يكون راعياً ، وهو مالك لإبله ولبقية الماشية التي يرعاها ، وهو إنما سُمّي راعياً لأنه اتخذ الرعي وسيلة للحياة يعيش عليها ، ويجوز أن يكون قد ورثها عن آبائه وأجداده ، ويجوز أن يكون قد اختارها هو حرفة له ، كما يجوز أن يكون راعياً لمال غيره من أهل قبيلته أو من الأبعدين ، وقد يكون هؤلاء من أهل الحواضر المستقرين ، يسلمون ما لهم للرعاة ، لترعى في البوادي ، وليكثر نسلها وتصح أجسامها ، فإذا أرادوا بيعها طلبوا من الرعاة اعادتها اليهم .

ويقوم الأبناء في العادة برعي إبل الأب والعائلة ، ونجد في القصص إشارات اليهم ، لطمع الرجال في الإبل ، وازدراءهم شأن الراعي لصغر سنه ، فيستاقون إبله ، مما يتسبب عن ذلك تعقب السراق ، ووقوع حوادث بينهم وبين أرباب الإبـل .

ولا يربي الرعاة الدجاج والبط والحمام والأوز والطيور المختلفة والخنازير ، انما يربيها أهل الريف . والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها ، وأرض فيها زرع وخصب ، أو حيث تكون الخضر والمياه والزروع[2] . وتربية الدجاج حرفة ينظر العربي اليها نظرة ازدراء واستهجان ؛ فلا يليق برجل حـرّ يحترم نفسه ، ان يخدم طيراً أو حيوانـاً صغيراً كالدجاجة ، ولذلك كانت من حرف

---

١ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٢ تاج العروس (٦/١٢٣) ، (تريف) .

(النبط) والعرب المتنبطة ، أي أهل الريف ممن خالط النبط ، أي بني إرم ، ومن تأثر بهم . وقد ربى أهل القرى الدجاج والطيور ، لأكلهم ، إذ كانوا يأكلون لحم الدجاج . ذكر ان الرسول والصحابة أكلت لحومها[1] ، ونجد الشعراء يشيرون إلى صياح الديكة عند دنوهم من الأرياف ، لتربيتهم الدجاج واعتنائهم بها ، واعتبارهم لحومها من ألذّ اللحوم .

وترعى الماشية في القرى وفي المزارع بما يظهر من أخضر على وجه الأرض بعد الحصاد ، ويقال لذلك : المحشرة[2] .

الرعاة والحضارة :

وقد حدث في الجاهلية ما يحدث اليوم : يتنقل الأعراب بمواشيهم وبيوتهم وكل ما يملكون من باطن جزيرة العرب في الجفاف ، فيتجهون نحو الشمال ، نحو بلاد الشأم والعراق للرعي والاكتيال . ينزلون هناك جماعات حيث يجدون الماء والكلأ ، في مواضع مختلفة قد تكون بعيدة عن القرى والمدن ممعنة في البادية ، وقد تكون في أطراف القرى وبين الحضر ، وقد يدخلون بين الحضر للاكتيال والامتيار وللري في مواضع العشب والكلأ المحيطة بهم . وهم على هذه الحالة ما دامت بهم حاجة إلى كل أولئك ، فإذا انتهت أو شح ما قصدوه انتقلوا إلى مواضع أخرى ، وهكذا كانت سنّة البدوي في الحياة .

وقد كانوا يفدون دوماً من باطن الجزيرة ، فيتوغلون في بادية الشأم ومنهم من كان يمعن في التوغل في تلك البادية حتى يصل أقصاها ،أي أعاليها في الشمال ، فيدخل الأرضين الجنوبية من (تركية) في الوقت الحاضر ، وأعالي العراق وبلاد الشأم . ومنهم من كان يجد له طيب العيش والمقام ، في هذه المهابط والمواطن الجديدة ، فيقيم بها ، وقد يتحضر قوم منهم ، ومن هؤلاء تولد حضر العرب في هذه الديار .

ولمّا كان في مجيء الأعراب على هذه الصورة محاذير وأخطار على الحضر وعلى الحكومات ، اضطرت الحكومات المسيطرة على العراق وبلاد الشأم الى اتخاذ وسائل

---

١ تاج العروس (٢/٣٨) ، (دج) .
٢ تاج العروس (٣/١٤٢) ، (حشر) .

الحماية المختلفة لحماية أرضهـــا منهم ، فبنت المسالح ووضعت الحرس في المواضع المشرفة على البوادي الممسكة بعنان طرقها ، لمراقبة القادم والخارج ولابلاغ رجال الأمن بدنوّ الخطر ، وحذرت من الأعراب ، فأشرفت على حركاتهم وسكناتهم خشية انتهازها فرص الضعف ، فتعبث على عادتها بالأمن . وقد أنشأ الرومـــان واليونان بركاً واتخذوا صهاريج لخزن مياه الأمطار ليستفيد منها الأعراب وليجدوا فيها ما يحتاجون اليه ، فلا يتوغلوا عميقاً في بلاد الشأم ، كما أقامـوا حصوناً في أطراف البادية لمراقبة حركات الأعراب .

وهكذا أمـــن حكّام الشأم من خطر الأعراب ، بعد أن اتبعوا معهم سياسة الترضية والتهدئة للاستفادة منهم في حفظ الحدود . وأقـام قسم من الأعراب في المواضع التي تتوافر فيها المياه ، وزرعوا ، واشتغلوا ببعض الحرف مثـــل غزل الأصواف ونسجها ، والتوسط في التجارة بين الأعراب وسكان المدن والقرى البعيدة عن البادية من بلاد الشأم ، وزرع الحبوب وأشجار الزيتون والكروم . واستفادوا من هذا الحاصل الزراعي ببيعه للأعراب المحتاجين اليه .

ولا حاجة بي إلى الاشارة إلى أثر المراعي في حياة جزيرة العرب ، وفي حياة الأعراب بصورة خاصة . فعلى المراعي تتوقف حياة الماشية عماد الثروة والمال لأهل البادية ، وهي من أهم المشكلات العويصة بالنسبة اليهم وإلى الحكومات حتى الآن. والأعرابي ومعه ماشيته وراء المراعي يفتش عنها في كل مكان،وينتقل اليها ليجد فيها الكلأ لماشيته . وسبب هذه المشكلة هو قلة وجود الماء في جزيرة العـرب ، وقلة الأمطار وانحصارها في مواسم ضيقـــة لا تمتـد طويلاً ، وانحباسها في بعض السنين ، مما يسبب قصر زمن الرعي ، وجفاف الكلأ والتأثير في حياة الماشية بحيث تتعرض للهلاك والموت . وهذا مما يحمل القبائل على التنقل من مكان إلى مكان ، فتتزاحم وتتطاحن للاستيلاء على المراعي .